

الإثنين 07-09-2011

1468 - عندما يتعمر الإنسان (12 من 12)

كتاب جديد (قديم)

"دروس للناس: في الطب النفسي"

أغنية للحياة



هي مدرسة تعمل في رياض الأطفال، جاءتني بعد غيبة طويلة، رغم أن صورتها كانت تخالني في كل لحظة، فتاة في أوج شبابها ترقص بعينيها إذ ينبعث منهما بريق يجذب ويطمئن، وتلمع قسماتها بنور هادئ مخترق.

فرحت برؤيتها فرحة هائلة ظهرت آثارها على قفزي من مقعدى وطريقتي في السلام

قلت لها:

- أين أنت؟

قالت:

- في كل مكان

- عشر سنوات أم عشرون؟

- ولكني كنت دائما معك

- أحيانا كنت أشك أنك اختفيت إلى الأبد
- علمتني ألا نياس
- كانت المقاومة رهيبة والظلام حالك
- ولكن دائما هناك - هنا- هنالك...

سألتها:

- ما أخبارك؟

قالت:

- كل خير
- كل هذه السنوات! لم تغريك الأيام
- أنا لا أكبر بمرور الزمن
- إذن... "حقيقة" ما تصورت
- أنا الحقيقة مجسمة
- ولكنك أقرب إلى الخيال
- بل قدمي على الأرض
- لم تنس تاريخك
- وأتطلع للمستقبل

- ما تصنعين هذه الأيام؟
- أعمل وأحب
- ما أروع ذلك!... وزوجك؟
- معي على الطريق
- والأولاد؟ كانوا أربعة على ما أذكر
- أصبحوا ملايين
- أهي أُلغاز؟
- بل الحقيقة...!! هل نسيت؟

- وماذا عن جاركم الشاب.. الذي كاد يغرق في بحر الألفاظ
- وجد لها معان جديدة..، وانطلق يكتب الشعر بالمدفع

- زوج خالتك " المحترم "؟
- أحيل إلى المعاش.. وذهب إلى قريته يعلم الفلاحين القراءة والكتابة
- الدنيا تغيرت؟
- هذا هو قانونها
- وأولاد عمك؟
- خرجوا من المعتقل
- وخالك - صاحب المصنع؟
- افتتح معهدا لراسي الثانوية العامة، يتعلمون فيه مهنة جديدة
- مهنة جديدة؟
- صناعة حديثة
- ماذا يصنعون؟
- يصنعون ألواحاً ضخمة تحتفظ بالدفء الخيوى، يبنون منها بيوتا كاملة في ساعات، فيها تتماوج نبضات الناس في دفع مضطرد، ويتخلق الحنان البديع
- الدفء نعم، ولكن كيف يتخلق الحنان؟
- يعيدون الثقة للرجال فتتحرر النساء، فيطمئن الرجال، وتتعلم البنات الأمومة، فيكبر الأطفال بشراً بحق
-
-
- حدث..! أخيراً..!
- كان لا بد أن يحدث
- ***
- ومشاكلك مع "أبلة" الناظرة؟
- ماتت في عنفوانها.. كانت تريد أن تعمل شيئاً
- يرحمها الله
- .. والله؟
- يملأ وجداني
- ما زلت مؤمنة
- حين يتحرر الإنسان، ينبض كيانه مع الوجود كله، ويخفق وجدانه مع أصله، وتتردد في أرجاء الكون أنغام الصحة العذبة كدحا إليه

- إيمانك راسخ
- ويزيد كل يوم
- ****
- وأخبارك مع العلم؟
- أقرأ كل شيء حتى
- وهل هناك بين الكتب موتى
- الصفحات مليئة بالتوابيت والموميات
- فكيف حال الأحياء؟
- سخروا الكيمياء لخدمة التطور
- كانت اقراصاً تقمع الإنطلاق وتعيد الثائر إلى حظيرة
المجموع بالضربة القاضية
- أصبحت تنظم الطاقة فقط، ثم يولد الإنسان من جديد
- ولادة جديدة! كيف والخلايا ثابتة بالوراثة؟
- يعاد تشكيلها وتنظيمها لتنتقل معاً تؤكد ما هو
إنسان ينمو أبداً
- بالكيمياء أيضاً؟
- بالكيمياء والخب والطبيعة
- لا أكاد أصدق
- هل سمعت آخر الأخبار؟
- خيراً؟
- زادت الخواس عدداً
- الخواس طول عمرها حمسة
- ألم تعلم أنها زادت على وجه التأكيد
- أهو ارتفاع في "البورصة"
- صدقني... العلم الحقيقي الحديث يقول أن الخواس زادت
عدداً، وأن كل التأخر والاضطرابات اللذين كانا... لم يكونا
إلا نتيجة لنقص الخواس
- وسيطرة العقل الحسبي... والألفاظ؟
- أصبحت مجرد وسائل للخواس الجديدة
- أكاد لا أفهم... ولكن وجهك ينطق بالصدق
- المسألة في غاية الوضوح.. والبساطة

- أصبحت مطلعة أكثر منى.. وما أنت إلا مدرسة في روضة أطفال

- نور المعرفة يشرق على الجميع
- وصراع العلم مع الإيمان؟
- كان صراعا سوريا، لم تعد ثمة وصاية لأيهما على الآخر
- وما السبب فيما كان من حشر هذا في ذاك؟
- رجال الطائفتين
- كلهم أفاضل
- كانوا سجناء الحواس الخمسة، والمهزوز منهم حشر هذا في ذاك

- أصبحت عالمة ومؤمنة
- ليس هناك فرق
- والطقوس التي أرمقتك وحيرتك
- التزام واجب، ومفيد

- ومشاكل الميراث.. هل مازالت الحكمة تؤجل القضية؟
- عندي ما يكفي
- ماذا تعنين؟
- عندي ما يكفي
- أكاد لا أصدق عيني
- عائدى من عملى يكفينى وزيادة
- أكاد لا أصدق
- هى الحقيقة
- أهى الجنة؟
- ربما.. ولكن لا بد للوصول إليها أن تمشى على الصراط
- أهى الصحة؟
- سمها ما تشاء
- ولكن السنين تمضى
- الأطفال يولدون كل يوم
- ألا تحشين الشيخوخة؟

- قلت لك أنا لا أكبر بالزمن، هل نسيت؟
- والموت.
- ولا أموت.
- اسمعى.. إلا هذا.. كل حى سيموت
- قد يتوقف القلب عن الخفقان وتتوقف الخلايا عن التمثيل الغذائي، ولكن ما أنا فيه يقول أنى لا يمكن أن أموت.
- وكيف جاءك كل هذا اليقين؟
- لأن الموت هو ولادة في نفس الوقت
- من أين لك كل هذه الثقة؟
- من الماضى تحكم على المستقبل
- كل إنسان يتغير
- أنا أيضا أتغير، أزداد ثقة وإنتاجا وحبا
- أهو الخلود؟
- لا.. الخلود الساكن وجه آخر للموت الخامد
- وماذا عن الغد؟
- دائما أرحب وأغنى
- مهما تكاثف الظلام!
- مهما طال الأمد
- أملك لا ينتهى، فيم تأملين الآن؟
- أن يشعر كل الناس بما أنا فيه أن يصدقونى، أن يعيشوا معنا: زوجى وأولادى الذين لا حصر لهم؟
- ربما لك وضع خاص.. ربما أنت هكذا بسبب طبيبتك
- الطيبة وحدها لا تكفى..
- إذن ما الذى يكفى؟
- القوة مع الطيبة.. الضعف يشوه كل خير ويعوق الانطلاق
- أكاد لا أصدق
- ولكنك أنت الذى صنعتنى هكذا
- أنا؟ فاقت التلميذة أستاذها، قسوة الزيف كادت تنسينى
- لا تصدق، ليس أنت أنت، الزيف فى كل مكان.. ولكن الحق والخير أيضا فى كل مكان

- ألا تخافين؟
- أنا أتقن الجودو.. وأتمرّن عليه مرتين في الأسبوع
- المسألة صعبة
- أنا لا أياس
- أبدأ؟
- أبدأ
- وهل تجدين من يسمع لك؟
- أكثر ممن عندك.. مئات وألوف وملايين يتزايدون باستمرار
- الناس يخبر رغم كل هذا؟
- طبعاً
- فرط التفاؤل يخيفني
- التفاؤل لا يمنع الحذر، وهو مسئولية لا تسمح إلا بتحقيق أهدافها، وإلا فهو ألعن من المخدرات
- هل أنت متأكدة أن هذا واقع فعلاً.. أم أنها لحظات وتنتهي؟
- ماذا جرى لك؟ أنا هكذا منذ كنت
- ولكن أين تركتني كل هذا الزمن
- كُنت معك في كل مكان..
- كنت ألحك في الطريق وأنا أسير أحياناً، ولكنك كنت تحتفين بسرعة مذهلة قبل أن ألحك
- بل إن زحمة الطريق كانت تشكك في وجودي
- العمارات شاهقة والمواصلات صعبة، وحوادث المرور في زيادة، والعربات تسحق الانسان في كل الشوارع والحارات، ووجه الطبيعة يختفى في سحابات الدخان والغبار
- ولكن الزهور ما زالت تفتح في كل مكان
- حقاً؟!
- والطيور تغني
- حقاً؟!
- والانسان كذلك
- الانسان يغني؟!!

- في كل مكان.. وغناؤه يتردد في أرجاء الكون
- وسط حطام الحوادث وبين أشلاء الموتى؟
- في كل مكان
- لمن يغنى الانسان!
- للحياة
- وذهبت
- ولم تذهب.